دلالات حروف المعاني في الخطبة الفدكية للسيدة الزهراء (عليها السلام)

الاستاذ الدكتور
هاشم جعفر حسين
جامعة بابل ـ كلية التربية للعلوم
المدرس المساعد
أحمد راضي جبر
المديرية العامة للتربية في بابل

Semantics of the letters of meanings in the Fadak sermon of Lady Zahraa (peace be upon her)

Prof. Dr
Hashem Jaafar Hussain
University of Babylon - College of Education for Science
Assistant Lec.
Ahmed Rady Jabr
General Directorate of Education in Babylon

الملخص:-

رتأى الباحثان أن يكونَ ميدان الدراسة سِفراً من أسفار آل البيت المكرمين ، عنوانه الخطبة الفدكية للسيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام).

تناول البحث حروف المعاني الواردة في نصوص هذه الخطبة ، وبيان دلالات كلٍّ حرف منها ، بحسب السياق الذي يرد في نصِّ الخطبة .

قُسِّم البحث – بحسب المادة التي جُمِعتْ – إلى ثلاثة مباحث ، سُبِقت بمقدمة ، وتمهيد وصف الباحثان في القسم الأول المضامين التي تناولتها الخطبة ، وفي القسم الآخر عرضٌ موجزٌ للدلالات المتعاورة على حروف المعاني.

أما المباحث ، فدرس الأول الحروف الأحادية ، والثاني الحروف الثنائية ، والثالث الحروف الثلاثية .

وخُتِم البحث بأهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة ، ولعلّ أهمها أن الباحثين كشفا عن قصديّة استعمال الحرف في أكثر نصوص الخطبة، بالاعتماد على المعنى الأصلي للحرف الذي ذكره النحويون ، وردِّ المعاني المحتملة الأخرى إليه، أما إذا تعذّر ذلك فيركنا إلى الاحتمال المتعدّد للدلالات المستنبطة من تلك النصوص .

الكلمات المفتاحية: الزهراء , الخطبة , فدك.

Abstract:-

Our current research aims to shed light on the Quranic discourse between the three messengers who were sent by God (swt) to the people of the village, and to demonstrate the linguistic and semantic impact of one of the Arabic language styles that was characterized by strengthening and consolidating the meaning, which is palace, which is a branch of science meanings, so Surah Yassin was a model for the focus of the study, as this surah was distinguished by the strength of its influence on the recipient, and it is the heart of the Holy Qur'an. He came in many ways, including: (the negation and the exception, and (but) and (the introduction of what the delay entails is the introduction of the object and the semi-sentence, and this diversity is only for hidden signs that may be verbal or intangible to carry hidden meanings intended by God (Glory be to Him).

Keyword: Al-Zahraa, sermon, Fadak.

المقدمة

أمّا بعدُ : فميدانُ هذا البحث هو الخطبة الفدكية للسيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام).

وموضوعه هو حروف المعاني الواردة في نصوص هذه الخطبة ، وبيان دلالات كلِّ حرف منها ، بحسب السياق الذي يرد في نصِّ الخطبة .

قُسِّم البحث – بحسب المادة التي جُمِعتْ – إلى ثلاثة مباحث ، سُبِقت بمقدمة ، وتمهيد وصف الباحثان في القسم الأول المضامين التي تناولتها الخطبة ، وفي القسم الآخر عرضٌ موجزٌ للدلالات القصدية والدلالات المتعاورة على حروف المعاني .

أما المباحث ، فدرس الأول منها الحروف الأحادية ، والثاني الحروف الثنائية ، والثالث الحروف الثلاثية .

وخُتِم البحث بأهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة ، ثم ثبتٍ بالمصادر والمراجع المعتمدة .

نسأل الله تعالى أن يتقبّل هذا العمل بقبولٍ حسنٍ، إنّه سميع مجيب ، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين .

التمهيد

الخطبة الفدكية ، أشهر خطبة للسيدة الزهراء (عليها السلام) ألقتها على جمع من المسلمين في المسجد النبوي ، وقد أخذنا سند الخطبة الشريفة من كتاب الاحتجاج للشيخ الطبرسي [1] ، ولذلك لن نشيرَ عند الاستشهاد بكلامها (عليها السلام) إلى مصدر الخطبة.

سُبِقت هذه الخطبة بذكر السبب الذي دفع السيدة الزهراء (عليها السلام) إلى الخروج من بيتها وإلقائها تلك الخطبة العصماء ، ويصوِّر لنا المؤرخون الظرف الذي قيلت فيه الخطبة ، وحال صاحبتها (عليها السلام) .

أما من حيث وصف هذه الخطبة ، فقد ابتدأت بحمد لله تبارك وتعالى ، وتعداد بعض من الصفات الإلهية على السنة المتبعة في الخطبة ، والشهادة للنبي الكريم بالنبوة والرسالة ، ثم شرعتْ في بيان علل الأحكام الشرعية .

ثم انتقلتْ إلى الغرض الرئيس من الخطبة ، وهو تذكير القوم بأمير المؤمنين (عليه السلام) بأنه أخ النبي (دون رجالكم) ، وبدأت تسرد سيرته العطرة وجهاده من أجل إعلاء كلمة الإسلام .

بعد ذلك انتقلتْ إلى محاججة القوم بمسألة حرمانها فدكاً ، مستندةً إلى القرآن الكريم مصدر التشريع الإسلامي ، ثم وجهتْ خطابها إلى الأنصار عاتبةً عليهم سكوتهم عن نصرة أهل البيت النبوي وتخاذلهم عن حمايتهم ، إلى آخر فقرات هذه الخطبة المباركة .

والقارئ لهذه الخطبة ، يجد اقتباس كثير من الآيات الكريمة فيها ، كأنها (عليها السلام) تريد بيان أنها والقرآن شيءٌ واحدٌ ، وتنبيه المسلمين حتى يرجعوا إليهما ، فهما (الثقلان) اللذان وصّى بهما النبي الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) .

أما حروف المعاني فهي القسم الثالث من الكلام العربي ، بعد الاسم والفعل ، وأشار إليها سيبويه(ت١٨٠ ه) بقوله : ((وأمَّا ما جاءَ لِمَعْنًى ، وليسَ بِاسْمٍ ، ولا فِعْلٍ ، فنحو : ثُمَّ ، وسوفَ ، وواو القسم ، ولام الإضافة ، ونحوها)) [٢] ، فهو – على المشهور- لفظ ليس له معنًى في نفسه ، وإنما يتضح في غيره [٣] . أي لا يتضح معناه حتى يوضع في سياق جملة .

وقد تناولها العلماء بدراسات كثيرة ، وعقدوا لها مؤلّفات مختصّة ، منها: الأزهيّة في علم الحروف لعلي بن محمد الهروي(ت٤١٥هـ) ، ورصف المباني في شرح حروف المعاني لأحمد بن عبد النور المالقي(ت٧٠٢هـ)، والجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي (ت٧٤٩هـ)، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لعبد الله يوسف بن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ) في قسمه الأول.

المبحث الأول
حروف الجرِّ الأحادية

١ـ الباء :

وهي من الحروف المختصة بالأسماء ولذلك تعمل ، وأثرها النحوي بما بعدها الجر ولها دلالات عدة أشهرها الإلصاق ، وحصر سيبويه المعاني الأخر به وسماه (الإلزاق) ، قال ((إنما هي للإلزاق والاختلاط ، وذلك قولك : خرجتُ بزيدٍ، ودخلت به ، وضربته بالسوط: ألزقتُ ضربك إياه بالسوط. فما اتسع من هذا في الكلام فهذا أصله)) [٤] .

وتوسع بعض العلماء في هذه المعاني ، فجعلوا الإلصاق واحداً منها ، أو هو الأشهر إلا ان ذلك لا يعني أن الباء لا يدل على معنًى سواه . فقد ذكر المرادي ثلاثة عشر معنًى لها هي

: الالصاق ، والتعدية ، والاستعانة ، والسببية ، والمصاحبة ، والظرفية ، والبدل ، والمقابلة ، والمجاوزة ، والاستعلاء ، و التبعيض ، والقسم ، وتأتي بمعنى (إلى) [٥] .

وأكثر هذه المعاني إنما هي من باب تعاور الحروف على بعض المعاني ، فتنوب عن (مع) في المصاحبة ، وفي الظرفية عن (في) وهكذا في أكثر هذه المواضع . وهذه النيابة إنما تكون من باب التوسع في المعنى ، فإذا نابت (الباء) عن (في) فتتضمن معنى الظرف وزيادة عليه ، وهذه الزيادة يقتضيها سياق الجملة . وسيتضح هذه المعنى بوضوح أكثر ببسط القول في الأمثلة الواردة في خطبة السيدة الزهراء (عليها السلام) .

فقد وردت الباء في الخطبة الفدكية بمواضع متعددة ، يستشف البحث فيها أكثر من معنًى ، تختلف دلالة النص بحسب ذلك المعنى ، ومن هذه المواضع :

١- في قولها (عليها السلام) : ((ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيته)) .

ففي هذه المقطع تتحدث السيدة الزهراء (عليها السلام) عن الحق تبارك وتعالى ، وعن ابتداع الخلائق بعد العدم ، واستعمال السيدة الزهراء (عليها السلام) كلمة (ابتدع) دلَّ على معنيين ((إحداهما : أن خلقه تعالى بديع ، أي جديد لا مثال له سبقه ، والآخر : أن خلقه إحداث وإنشاء لا مادة له قبله)) [٦] .

وتحتمل الباء الواردة في (كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيته) ثلاثة معانٍ، هي :

الأول: الإلصاق ، والمعنى :كوّن الأشياء ملتصقة بقدرته ، وذرأها ملتصقة بمشيئته.

الثاني: السببية ، والمعنى : ابتدع الخلق وأنشأه بسبب قدرته التي شاءت ذلك الأمر ، ولأن مشيئته أرادت ذرأ الخلائق. فإنه إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون . فالعلة الأولى في إيجاد الخلق هي قدرة الحق تبارك وتعالى .

المعنى الثالث: الاستعانة ، وهو مصطلح مجازي لإسناده إلى الله تعالى ، فهو تبارك وتعالى أجلُّ وأرفعُ أن يحتاج إلى مَن يعينه ، ولكنه تعبدنا بالأسباب الطبيعية والقوانين العلمية ، فهذا الكون تحكمه قوانين وسنن تسير الحياة على وفقهما ، فيكون المعنى عندئذٍ أن الله تعالى ابتدع الخلائق بواسطة مشيئته وقدرته، فكانتا وسيلتين لإيجاد الخلق. ونظير هذا المعنى كثير في القرآن الكريم ، كقوله تعالى:﴿ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ﴾ (السجدة :من الآية١١) فإنَّ إسناد التوفي إلى الملك أو الملائكة إنما هو من باب ((التفنن في

مراتب النسب ، فالله سبحانه ينتهي إليه كل أمر ، و هو المالك المتصرف على الإطلاق . وللملك الموت التوسل إلى ما يفعله من قبض الأرواح بأعوانه الذين هم أسباب الفعل)) (٧).

ولعلّ المعنى الأصلي لحرف الباء هنا ، وهو الإلصاق ، أولى ، ذلك أن التكوين ملتصق بالقدرة والذّرْءَ ملتصق بالمشيئة ، بلا انفصال .

٢- قولها (عليها السلام) في ذكر أبيها المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((فأنار الله بأبي محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ظلمها ، وكشف عن القلوب بهمها)) .

كانت الناس غارقة في بحور الكفر والجهل ، مستولٍ عليها الظلم والجور ، فشاء الحق تعالى أن يخرجهم من هذه الظلمات إلى النور ، فأرسل إليهم الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) لتلك الغاية .

وقد احتمل البحث في الباء الواردة في هذا النص دلالتين ، يختلف معنى النص تبعاً لكل دلالة .

أما الدلالة الأولى فهي السببية ، ويكون معنى النص أنَّ الله تعالى قد أنار ظلم الجاهلية ، لوجود النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ونظيره في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾(النساء : من الآية ١٦٠) ، فهذه الآية مختصة باليهود ، لأنهم عملوا المنكرات الداخلة تحت عنوان الظلم ، ((فإنه تعالى جعل هذا الظلم منهم سبباً لتحريم الطيبات عليهم، و لم تحرم عليهم إلا في شريعة موسى المنزلة في التوراة)) (٨) .

فإن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) كان سبباً لإخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان بالله تعالى . ويُفصح عن هذا المعنى جلياً قوله تعالى : ﴿ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (الطلاق : من الآية ١١) ، فإن الله تعالى جعل ((علة إنزال الذكر إخراجَ المؤمنين الصالحين من الظلمات إلى النور وإن كانت علة إنزاله إخراج جميع الناس من ظلمات الكفر وفساد الأعمال إلى نور الإيمان والأعمال الصالحات ، نظراً لخصوص الفريق الذي انتفع بهذا الذكر اهتماماً بشأنهم)) (٩) .

وأما الدلالة الأخرى للباء فهي الاستعانة ، فقد شاءت الحكمة الإلهية أن يكون إخراج الخلق من الظلم إلى النور بواسطة النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فكان هو السراج المنير الذي أضاء للعالم أجمع ، وأزاح العماية والغواية عنهم بإذن الله تعالى .

٢- في قولها (عليها السلام) في ذكر مناقب النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) : ((واصطفاه قبل أن ابتعثَه ، إذ الخلائقُ بالغيب مكنونةٌ ، وبسترِ الأهاويلِ مصونةٌ ، وبنهاية العدم مقرونةٌ ، علماً من الله تعالى بمآيل الأمور، وإحاطةً بحوادث الدهور، ومعرفةً بمواقع المقدور)) .

تبيِّن السيدة الزهراء (عليها السلام) في هذا النص الشريف العناية الإلهية بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد عُدَّ إعداد خاصاً لتحمل أعباء رسالة السماء ، ولأداء أعظم مهمة في تاريخ البشرية ، هي إخراج الخلق من الظلمات إلى النور .

وتشير السيدة الزهراء (عليها السلام) إلى أن اصطفاء النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) كان في العوالم التي سبقت عالم الدنيا ، لأن ((الخلائق هناك كانت مصونة عن أهاويل هذه النشأة الدنيوية ، وكونها مقرونة بنهاية العدم ، لأنه أول خلقهم ... إن الله تعالى اختار محمداً (صلى الله عليه وآله) واجتباه واصطفاه ، إذ كانت الخلائق أشباحاً وأظلة)) [١٠] .

و للباء في هذا النصِّ دلالتان ، أما الأولى ، فهي الإلصاق وهو المعنى الأصل لهذا الحرف ، ويكون المعنى : أن الله تعالى قد اصطفى النبي الأكرم في عالم كانت الخلائق ملتصقة بالغيب ، وكان هناك سترٌ ملتصقٌ بها يحميها من أهاويل الدنيا وآفاتها ، فاختار الله تعالى نبيه الكريم ، لأنه – تعالى – يعلم بعواقب الأمور ، فقد ((علم أن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) هو اللائق للاختيار والاصطفاء دون غيره ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ، وقوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١١] .

والدلالة الأخرى للباء في هذا النص هي الظرفية ، أي بمعنى (في) ويكون المعنى : أن الله تعالى قد اصطفى النبي عندما كانت الخلائق في الغيب محفوظة ، وكانت في ستر يحفظها ويحميها من أهاويل الدنيا ، فكأن الغيب والستر كانا ظرفين يحفظان الخلق من أن يمسهم سوء أو أذى ، ففي ذلك الظرف وبذلك الزمن شاءت القدرة الإلهية اصطفاء النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، لأنه أول من أجاب قوله تعالى : (أ لستُ بربكم) . فقد روى العياشي عن زرارة ، قال : سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قوله عز وجل : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ

ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ قال : كان محمد (ﷺ) أول من قال : بلى)) [١٢] .

وكلا الدلالتين مقبولة في النص المذكور ، فيكون ذلك من الاتساع في المعنى الناشئ من تعدد احتمال النص لأكثر من معنى مراد.

٢ـ الواو :

من الحروف ذات الدلالات المتعددة ، فيكون عاملاً في بعضها كعملها الجرَّ في الأسماء التي تفيد القسم ، كقوله تعالى : (والفجرِ وليالٍ عشرٍ) (الفجر / الآيتان ١-٢) ، أو التي تنوب عن (ربَّ) التي تسمى (واو ربَّ) وتعمل الجر بالاسم الواقع بعدها أيضاً ، والنائبة عن (مع) العاملة النصب بما بعدها [١٣] ، وعلة عملها أنها اختصت بها [١٤] .

وأما غير العاملة فهي غير المختصة ، التي تدخل على الأفعال والأسماء معاً ، كالواو العاطفة التي تعطف اسماً على اسم ، أو فعلاً على فعلٍ .وتفيد التشريك في الحدث بين المعطوفين ، ولذلك يأخذ المعطوف حركته الإعرابية من المعطوف عليه ، قال سيبويه : ((ولم تلزم الواو الشيئين أن يكون أحدهما بعد الآخر، ألا ترى أنك إذا قلت: مررتُ بزيدٍ وعمرٍو، لم يكن في هذا دليل أنك مررتَ بعمرو بعد زيد)) [١٥] ، فتحتمل الواو في قولنا : جاء زيدٌ وعمرو . ثلاثة معانٍ : إما أن يكون (زيد) الأول و(عمرو) الثاني ، أو (عمرو) الأول و(زيد) الثاني ، أو جاءا معاً ، وإنما جيء بالواو للدلالة على أن الاثنين اشتركا بفعل المجيء مطلقاً من دون الإشارة إلى المتقدم أو المتأخر منهما .

وقد ذهبت طائفة من النحاة إلى أن الواو قد تأتي للترتيب كالفاء، فيكون الأول المتقدم والثاني المتأخر وهكذا ، قال المرادي : ((ذهب قوم إلى أنها للترتيب. وهو منقول عن قطرب ، وثعلب ، وأبي عمر الزاهد غلام ثعلب، والربعي، وهشام ، وأبي جعفر الدينوري)) [١٦] .

ويرى البحث أن السياق ومراد المتكلم هما الحاكمان في دلالة (الواو) على الترتيب أو مطلق الجمع .

وقد وردت (الواو) في كلام السيدة الزهراء (عليها السلام) بمواضع عدة ، تحتمل معنى مطلق الجمع أو الترتيب ، ومن ذلك :

١- في قولها (عليها السلام) : ((فجعل الله الإيمانَ تطهيراً لكم من الشرك ، والصلاةَ تنزيهاً لكم عن الكبر . والزكاةَ تزكية للنفس ، ونماءً في الرزق ، والصيامَ تثبيتاً للإخلاص ، والحجَّ تشييداً للدين ، والعدلَ تنسيقاً للقلوب ، وطاعتنا نظاماً للملة)) .

تتحدث السيدة الزهراء (عليها السلام) في هذا المقطع من الخطبة وما بعده عن علل الأحكام المفترضة ، وأثرها في العباد والبلاد ، فإن الله تعالى قد فرض علينا الإيمان به ، لأنه يخلص النفوس من درن الشرك وعبادة الأوثان ، وقد احتمل العلامة المجلسي نصب (تطهيراً ، و تنزيهاً) على المفعول لأجله ، قال ((يكون المنصوب الثاني في كل جملة مفعولاً لأجله ، والمعنى مثلاً : وضعَ الله الإيمانَ وشرَّعَه ، لتطهيركم من الشرك ، وجعلَ الصلاةَ وفرضَها لتنزيهكم عن الكبر وهكذا ...)) [١٧] .

ويرى البحث نصب (تطهيراً ، وتنزيهاً ...) على أنها مفاعيل ثانية للفعل (جعل) فإن الإيمان يُطهر القلوب من أن تُدَنَّسَ بنجاسات الأوثان ، فينزل العبد بنفسه إلى الرذيلة ، فجاء الإيمان ليرفع النفس الإنسانية إلى مقامها السامي بواسطة الإيمان بالحق تبارك وتعالى ، والصلاة بما فيها من طقوس تُنزِّه النفس الإنسانية عن التكبر .

و (الواو) الواردة في هذا المقطع ، تحتمل دلالتين ، الأولى : مطلق الجمع ، فيكون المعنى تبعاً لهذه الدلالة ، أن الله تعالى جعل هذه الأحكام الإيمان والصلاة والزكاة والصيام وغيرها ، لما فيه خيركم ، فالله تعالى يريد بالعباد اليسر ولا يريد بهم العسر . ولذلك خلقهم . فالمعنى منصبٌ على الرحمة الإلهية التي يريد الله أن تعمَّ المسلمين جميعاً ، ولذلك جيء بالواو ليجمع هذه النعم ويقدمها كهدايا للخلق .

وأما الدلالة الأخرى : فهي الترتيب ، وفيه معنى التكامل الذي يسعى إليه الإنسان ، ويكون المعنى : أن الله تعالى فرض علينا الإيمان أولاً ، فيطهر النفوس من قذارات الشرك وعبادة الأصنام ، فإذا نُظِّف القلب من تلك الأدران ، صار العبدُ مؤهلاً أن يقوم راكعاً وساجداً متشرفاً بالحضرة الإلهية ، فتنزه نفسه من الكبر الذي هو الشقيق الأصغر للكفر والشرك .

فالنص تبعاً لدلالة الترتيب ناظرٌ إلى التكامل الإنساني الذي خطه الله تعالى من الإيمان به ، وهو الإقرار بالله تعالى ربّاً واحداً لا شريك له ، ومن ثم ترجمة هذا الإيمان إلى العمل بدءاً بالصلاة والصيام وهكذا دواليك .

٢- في قولها (عليها السلام) في علة العقاب الإلهي : ((ووضع العقاب على معصيته، ذيادةً لعباده عن نقمته ، وحياشةً منه إلى جنته)) .

وقد ورد هذا المقطع من الخطبة الشريفة في معرض كلامها (عليها السلام) عن علل الأحكام الشرعية ، فالله تبارك وتعالى جعل العقاب على مَن يعصيه لأمرين أن يُبعد عباده عن غضبه وناره ، وسوقهم إلى جنته ورضوانه ، ولهذا فإذا انكشف للعبد حقيقة الوعيد الإلهي بالعذاب إنما هو رحمة في باطنه ، علم لطف الله تعالى به ، فما خلق الخلق إلا ليرحمهم .

ويتراءى للباحث في الواو الواردة في النص المذكور دلالتين ، الأولى : مطلق الجمع بين الغايتين اللتين وضع العذاب لأجلهما ، ويكون المعنى أن الله تعالى إنما وضع العذاب على المذنبين، لتحقيق أمرين ، الأول: إبعادهم عن نقمته وغضبه ، والآخر : دفعهم وسوقهم إلى جنته، وهما أمران متلازمان ، لأن العبد إذا ابتعد عن غضب الله وعقابه تقرب إلى جنته ورضوانه ، فكلا الغايتين متحققتان في العقاب الإلهي .

وأما الدلالة الأخرى ، فهي الترتيب بين هاتين الغايتين ، ويكون معنى النص ، أن الله تعالى كتب على العاصي العذاب ، لإنقاذه من النار أولاً ، فإذا تحقق هذا الأمر انتقل إلى الغاية الثانية وهي سَوق العباد إلى الجنان ، ودخول العبد إلى جنة الله تعالى يتطلب تنقيته من الذنوب وآثارها ، فينقى العبد من ذنوبه ومعاصيه أولاً وبعدها يدخل الجنان .

والذي يميل إليه البحث هو المعنى الثاني ، لأمرين : الأول : لأن معنى الترتيب يشتمل على مطلق الجمع بين المعطوفين ، ويفصح زيادة على ذلك عن الأول فالثاني ، والأمر الآخر: إن الفطرة الإنسانية قائمة على مبدأ درءِ المفاسد أولاً ، ومن ثَمَّ جلب المصالح ، فالإنسان بطبيعته يميل إلى حماية نفسه من المخاطر والمهالك ، فإذا تحقق له ذلك ، انتقل إلى تحقيق الأمور التي تعود بالنفع عليه . والله أعلم .

٣ـ دلالة اللام :

حرف على قسمين : عاملة وغير عاملة ، فالعاملة هي المختصة إما بالأسماء فتعمل حينئذ الجر ، والمختصة بالأفعال فتعمل الجزم وهي لام الأمر . وقد جعل الكوفيون الناصبة عملاً ثالثاً لها [١٨] .

وذكر النحاة لها معاني عدة ، وقد أرجع سيبويه كل هذه المعاني إلى معنى جامعٍ شامل لها وهو الملك والاستحقاق [١٩] ، وقد سمّاها الرمّاني (لام الإضافة) وحصر معانيها بأربعةٍ

بأربعةٍ [٢٠] على حين ذكر ابن هشام لها اثنين وعشرين معنى[٢١] ، ، وأكثر هذه المعاني يرجع إلى الاختصاص أو الاستحقاق ، قال المرادي : ((الاختصاصُ ، وهو معنًى لا يُفارِقُها ، وقد يَصْحَبُهُ معانٍ أخرُ ، وإذا تُؤُمِّلَتْ سائرُ المعاني المذكورةِ وُجِدَتْ راجعةً إلى الاختصاصِ ، وأنواعُ الاختصاصِ متعددةٌ ، ألا ترى أنَّ مِنْ معانيها المشهورة التعليل ، قال بعضهم : وهو راجعٌ إلى معنى الاختصاص ، لأنَّك إذا قلتَ : جئتُك للإكرامِ ، دَلَّتِ اللامُ على أنَّ مجيئَكَ مختصٌّ بالإكرام ، إذْ كان الإكرامُ سببَهُ ، دون غيرِه)) [٢٢] .

وقد استشف البحث دلالاتٍ متعددة للام في خطبة السيدة الزهراء (عليها السلام) ، ومن ذلك:

١- في قولها (عليها السلام) : ((ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها ، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيته، من غير حاجة منه إلى تكوينها ، ولا فائدةً له في تصويرها، إلا تثبيتاً لحكمته، وتنبيهاًعلى طاعته، وإظهاراً لقدرته، و تعبُّداً لبريته، وإعزازاً لدعوته)) .

فقد وردت (اللام) في هذا المقطع من الخطبة الشريفة في قولها (تثبيتاً لحكمته ، وإظهاراً لقدرته ، وتعبداً لبريته ، وإعزازاً لدعوته) ، وقد تراءى للباحث معانيَ للام في هذه التراكيب ، منها : الفعل بتعبير الرماني [٢٣] ، والتقدير : أن الله تعالى ابتدع الخلقَ تثبيتاً لفعل الحكمة الإلهية ، وإظهاراً لحدث القدرة الربانية ... وهكذا دواليك . فجاءت المفعول لأجله (وتثبيتاً ، وإظهاراً ، وتعبداً ، وإعزازاً) لتثبيت الأفعال التي تلت هذه المفاعيل ، وهي فعل الحكمة والقدرة والعبودية ، ودعوة الحق تبارك وتعالى .

والمعنى الثاني للام ها هنا البيانُ ، أي : إن الله تعالى أراد أن يبين عائدية التثبيت والإظهار والتعبد والإعزاز ، فجيء باللام لتبين هذا المعنى ، وهذان المعنيان لعل مردهما إلى الاختصاص ، ويقوّي هذا القول مجيء اللام بتركيب الاستثناء المفرغ الذي يفيد الاختصاص ، أي إن علة ابتداع الأشياء مختصةٌ بهذه الأمور ، وجاء باللام لزيادة في التوكيد ، أو كما سمّاه الخوانساري بالتقوية [٢٤] . وهذه المعاني تستطيع أن تستشفها أيضاً في قولها (عليها السلام) في النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): ((ابتعثه الله تعالى إتماماً لأمره ، وعزيمةً على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه ، فرأى الأمم فِرَقاً في أديانها، عُكَّفاً على نيرانها، عابدةً لأوثانها، مُنكرةً لله مع عِرفانها)) . وفي قولها (عليها السلام) في خطابها للحاضرين : ((

وزعمتم حقٌّ لكم لله فيكم ، عهدٌ قدمه إليكم)) . وفي قولها (عليها السلام) في بيان علل الأحكام الشرعية : ((والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكيةً للنفس ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة ، والجهاد عزا للإسلام)) .

المبحث الثاني
الحروف الثنائية

أولاً : (**عن**) :

وهي من الحروف المختصة بالاسم ، وتعمل فيه الجرَّ ، وقد ذكر علماء الحروف أنَّ لها معانيَ عدةً يرجع أكثرها إلى معنًى جامعٍ لها وهو المجاوزة ، وهو المعنى الوحيد الذي ذكره البصريون [٢٥] ، والمعنى الآخر لها هو البدلية ، كقوله تعالى :﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ (البقرة / من الآية ٤٨) . أي : لا تحاسب نفسٌ بدل نفس أخرى ، والله أعلم وأما المعاني الأخرى التي ذكرها علماء الحروف فتعود إلى نيابتها عن غيرها من الحروف ، فتأتي بمعنى الباء كما وجَّهها الرماني في قوله تعالى : (وما يَنْطِقُ عنِ الهوى) (النجم / الآية ٣) . أي : بالهوى [٢٦] ، وتنوب عن (على) أو بتعبير ابن سيده : دخول بعض الصفات مكان بعض ، كقول الشاعر :

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسبٍ عني ولا أنت ديباني فتخزوني

أي لم تتفضل عليَّ في حسبٍ أو داينتني بدينٍ فتخزني به [٢٧] .

وقد وردت (عن) في خطبة السيدة الزهراء بمواضع ، تحتمل أكثر من دلالة ، تختلف دلالة النص تبعاً لتلك الدلالات . ومنها :

١- في قولها (عليها السلام) عن نعم الله تعالى : ((جَمَّ عن الإحصاء عددُها ، ونأى عن الجزاء أمدُها، وتفاوتَ عن الإدراك أبدُها)) .

الدلالة العامة للفعل (جمَّ) الكثرة ، والاجتماع ، فيقال : ((أحبك حبّاً جمّاً، وجاءوا جمّاً غفيراً، والجمّاء الغفير. وجمَّ المالُ وماءُ البئر جموماً، وجمّت الركية: اجتمع ماؤها)) [٢٨] . فالزهراء (عليها السلام) تبيِّن أن نعم الله تعالى كثيرة على العبادِ لا يستطيع إحصاؤها .

احتمل البحث في الحرف (عن) في هذا المقطع دلالتين ، الأولى المجاوزة وهو المعنى الأصلي لهذا الحرف ، وتكون دلالة النص على هذا : أن نعم الله تعالى كثيرة ومجتمعة بحيث قد جاوزت عملية الإحصاء ، وينحسب هذا المعنى على المقطعين الآخرين (نأى عن الجزاء أمدها ، وتفاوت عن الإدراك أبدها) .

والدلالة الأخرى الاستعلاء ، أي تنوب عن الحرف (على) ، فمن دلالات (جمَّ) التغطية ، ومنه (الجميم) فتقول : ((ورعت الماشية الجميم، وهو ما غطّى الأرض من النبات)) [٢٩] . ويكون معنى النص تبعاً لهذا التوجيه : أن النعم الإلهية كثيرةٌ بحيث تغطي الإحصاء فلا يمكن عدُّها .

والظاهر أن دلالة المجاوزة في (عن) أنسب للمعنى المراد في النصِّ ، إذ أفاد معنى المجاوزة الافتراق بين النعم الإلهية و الإحصاء والجزاء والإدراك ، قال تعالى : (وإنْ تعدُّوا نعمةَ الله لا تحصوها) (النحل / من الآية ١٨) .

٢- في قولها (عليها السلام) ذاكرةً أباها (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((فرأى الأمم فِرَقاً في أديانها، عُكَّفاً على نيرانها، عابدةً لأوثانها، مُنكرةً لله مع عِرفانها ، فأنارَ الله بمحمدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) ظُلَمَها، وكشفَ عن القلوب بُهَمَها، وجلَّى عن الأبصار غُمَمَها)) .

تذكر السيدة الزهراء في هذا المقطع حال الناس قبل بعثة النبي الأكرم ، إذ كانوا راكدين في وحل الجهل والانحطاط الفكري بحيث وصل بهم الأمر أن يعبدوا ما يصنعونه بأيديهم من الحجارة والخشب ويقدسونه ، فبعث الحق تبارك وتعالى نبيَّه الكريم ، ليستنقذهم من ضلالتهم ويُثير فيهم دفائن العقول .

و (عن) في النص الشريف تحتمل دلالتين ، الأولى : المجاوزة ، وعليه يكون المعنى : أن الله تعالى أراد أن يزيل كل ما هو غامض ومبْهَم من القلوب ، فجعل حاجزاً بين المُشكِل وغير الواضح عن القلوب ، وما يعيق الإبصار عن العيون .

وأما الدلالة الأخرى لها : هي إنابتها عن (على) ، وقد استعملت السيدة الزهراء (عليها السلام) هذا الحرف لا (مِن) ، لبيان أن هذا الرَّينَ والمشكل إنما يقع على القلوب وليس داخلها وكذلك الحال بالنسبة إلى الأبصار فالغمام يكون عليها لا فيها ، ليبقى القلب بيت الله تعالى طاهراً لا تدنسه الأدران ، فإن قلب المؤمن عرش الرحمن ، فقد روي في الحديث القدسي : ((لم تَسعْنِي سماواتي ولا أرضي ووَسِعني قلبُ عبدِي المؤمن)) [٣٠] ، فالصدأ

لم يصل الى داخل قلوب هؤلاء، فشاءت القدرة الإلهية أن تطهر قلوب عباده من هذه الأرجاس ببعثة النبي الأكرم (ﷺ) .

ولعلّ الدلالة الأولى للحرف (عن) أولى في النصّ، ذلك أنّ فضل هذا النبيّ الكريم على أمّته كبير جداً، فهو باب رحمتهم عند الله ، وبه يتجاوزون ظلمات قلوبهم فيستنيروا بنوره ، فتندفع عن قلوبهم الظلمة البهماء ويُزال الرين وينجلي الحقُّ لهم ، وهو معنى تناسبه دلالة المجاوزة في (عن).

٣- في قولها (عليها السلام) : ((حتى تفرّى الليلُ عن صُبحِه ، وأسفرَ الحقُّ عن مَحضِه)) .

تبيّن السيدة الزهراء (عليها السلام) في هذا المقطع ثمرتين من ثمار البعثة المحمدية المباركة ، فقد انكشف ليل الشرك والجهل ، وبزغ صبح الإيمان والحرية ، فغدا الحقُّ واضحاً للخلق .

وقد تعدّدت دلالة (عن) في هذا النص ، فيختلف المعنى تبعاً لكل دلالة ، فدلالته الأولى : المجاوزة ، فيكون معنى النص بحسب هذه الدلالة أن الليل قد تفرقت قِطَعُهُ وتجزأت حتى بانَ ضوء الصبح ، فتجاوز الليل النهار فلا يجتمعان.

والدلالة الأخرى هي التعليل ، فالسيدة الزهراء (عليها السلام) تبيِّن سبب تفرقة قطع الليل المظلم بحيث انكشف وتلاشى بسبب الصبح ، والتعليل من المعاني التي يدل عليها الحرف (عن) كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ (التوبة / من الآية ١١٤) ، فقد بيَّنت الآية الكريمة علة استغفار إبراهيم (عليه السلام) لأبيه [٣١] .

ويبدو أن إبقاء الحرف (عن) على دلالته الأصلية وهي المجاوزة أنسب في النصّ المذكور، ذلك أنّ فيها نزع شيء من شيء ، وتفرقه عنه ، وانكشافه عن خصائصه ، وابتعاده عن سماته ، وهو المراد من بيان حال بعثة النبيّ وانكشاف نورها عن ظلم الجاهلية.

ثانياً : (**مِنْ**) :

وهو من الحروف العاملة [٣٢] ، لاختصاصه في الدخول على الأسماء ، وعمله الجرُّ الذي يُعَدُّ من علامات الاسم ، وأما الدلالات التي يؤديها هذا الحرف فأشهرها : ابتداء الغاية ، ، كقوله تعالى : (مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقْصَى) (الإسراء / من الآية ١) ، والتبعيض ، كقولنا : أخذت من الدراهم ، أي بعض الدراهم ، وبيان الجنس، والسببية[٣٣].

وقد ورد هذا الحرف في الخطبة الفدكية متعدد الدلالات ، تغيرت دلالة النص تبعا لتلك الدلالة ، ومّما ورد :

١- في قولها (عليها السلام) : ((الحمدُ الله على ما أنعمَ، وله الشكرُ على ما ألهمَ، والثناءُ بما قدّم من عمومِ نِعَمٍ ابتدأها)) هذا المقطع افتتحت به السيدة الزهراء (عليها السلام) خطبتها الشريفة ، تحمد الله تبارك وتعالى وتشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى ، ثم تنتقل إلى وصف تلك النعم الربانية ، وقد ورد الحرف (من) في هذا المقطع ، واحتمل فيه البحث دلالتين ، الأولى : بيان الجنس، ويكون معنى النص تبعا لهذه الدلالة ، الحمد لله والشكر على ما قدّمه الذي هو نِعَمٌ ابتدأها على خلقه .

وأما الدلالة الأخرى : فهي السببية ، فيبدو للباحث أن الزهراء (عليها السلام) أرادت أن تبين سبب هذا الحمد والشكر للحق تبارك وتعالى ، وهو نعمه التي أنزلها على عباده فيستحق بها الحمد والشكر ، ومما يعضد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ (البقرة / من الآية ١٩) . أي بسبب الصواعق .

٢- في قولها (عليها السلام) في الثناء على الله تبارك وتعالى : ((المُمتنِعُ من الأبصار رؤيتُه، ومن الألسنِ صفتُه، ومن الأوهام كيفيتُه)) .

المنع يعني الإحالة بين شيئين أن يلتقيا ، ويُعَدَّى هذا الفعل بنفسه ، فنقول : منعت زيداً ، ويعدى بحرف الباء ، فتقول : امتنعتُ بزيدٍ ، أي : بيَّنتُ استعانتي لتحقيق الامتناع ، ويعدى بحرف (عن) : فتقول : امتنعتُ عن زيدٍ ، أي جاوز الامتناع زيداً ، ويعدَّى بـ(مِن) كما هو الحال في مقطع الخطبة الشريفة المذكور ، والذي يبدو للباحثين أن استعمال الحرف (مِن) ها هنا أبلغ من الحرف (عن) ، فلو استعمل الحرف (عن) يكون المعنى أن العين تستطيع أن تبصر ولكن هنالك حائلاً يمنعها من الإبصار ، لأن (عن) للمجاوزة ، وأما (مِن) فإن الإبصار غير متحقق من العين نفسها فلا تقدِر أن تبصر الحق تبارك وتعالى . وهذا التوجيه ينسحب على جُمَلِ هذا المقطع الشريف .

هذه الدلالة الأولى لـ(مِن) وأما الدلالة الأخرى فهي بيان الجنس ، أي : إن الله تبارك وتعالى امتنعت رؤيته من جنس الأبصار ، وامتنعت الألسن أن تصل إلى صفة الحق تبارك وتعالى ، ووصل المنع حتى الأوهام مهما كان جنسها أن تتصور كنه الذات الإلهية .

ومهما كان التوجيه الدلالي لـ(من) فإن المعنى الجامع بينهما هو استحالة حدوث هذه الأشياء (الرؤية والوصف وحتى الأوهام لا تدرك كيفية الحق تعالى) ، ولكن على تفاوت في المعنى البلاغي لكل توجيه . والذي يميل إليه البحث المعنى الأول الذي يبيِّن أن الأبصار والألسن والأوهام عاجزة عن إدراك الله تعالى ، والله أعلم .

٣- في قولها (عليها السلام) تُذكِّر بفضل النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((وقام في الناس بالهداية ، وأنقذَهم من الغواية، وبصَّرهُم من العماية، وهداهُم إلى الدين القويم)) .

وقد احتمل البحث في الحرف (من) دلالتين ، يختلف معنى النص بحسب كل دلالة ، فالأولى : انتهاء الغاية ، وهو من معاني هذا الحرف الذي مثَّل له سيبويه بقوله : ((رأيته من ذلك الموضع، فجعلتَه غايةَ رؤيتِك، كما جعلتَه غايةً حيث أردتَ الابتداء والمنتهى)) [٣٤] ، فإن انتهاء غواية القوم وضلالهم بتبصرة الله تعالى لهم ببعثة الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإن شئتَ جعلتَ (من) لابتداء الغاية، على معنى : أن إنقاذ القوم وتبصرتهم وهدايتهم ابتدأت من محل غوايتهم وعماهم .

والدلالة الأخرى لهذا الحرف السببية ، وعلى هذا التوجيه يكون معنى النص بيان العلة التي من أجلها بصَّر الحق تبارك وتعالى هؤلاء القوم وإنقاذهم ، وهي أنهم كانوا غاوين مبتعدين عن الحق ، غير مبصرين الهدى ، ولا يميزون الحق من الباطل . فلذلك ابتُعِث النبي الكريم ، لإنقاذ الخلق من مستنقع الضلال إلى ساحة الإيمان والنور .

المبحث الثالث
الأحرف الثلاثية :

أولاً : (على) :

حرف مختص بالأسماء ، وعمله الجرُّ ، وأما من حيث المعاني التي يؤديها فعديدة ، ولعلَّ أبرزها الاستعلاء، وإليه ترجع المعاني الأخرى ، ولذلك لم يذكر البصريون غير هذا المعنى وتأوَّلوا ما قد يُظَنُّ أنه جاء لغير معنًى ، وأرجعوه إلى الاستعلاء [٣٥] ، كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (الرحمن / الآية ٢٦) ، أي فوق الأرض .

و المعاني الأخرُ له إنما هي من باب التناوب الذي أثبته كثير من العلماء لحروف المعاني ، فهي تتناوب – عند هؤلاء – في ما بينها على تأدية المعاني ، بحسب مقتضى الكلام.

ولذلك سيحاول البحث إرجاع المعاني غير الاستعلاء إليه ، ما أمكن ذلك ، و إبراز الجانب الدلالي والبلاغي لاستعمال هذا الحرف من سواه ، والله المستعان .

وقد ورد (على) في الخطبة الفدكية بمواضع عدة ، منها :

١- في قولها (عليها السلام) : ((الحمد الله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم)) ، وهو أول ما افتتحت به خطبتها الشريفة ، فقد جرت العادة عند المسلمين أن يستفتحوا كلامهم بحمد الله تبارك وتعالى ، فهي تحمد الله على نعمه ، وتشكره على ما ألهمها من شكرٍ على تلك النعم

والمعنى الظاهر للحرف (على) في هذا المقطع أنها للسببية ، أي تبين سبب فعلي الحمد والشكر ، وتكون دلالة النص بحسب هذا التوجيه : أني أحمدُ الله تعالى بسبب نعمه التي أنعمها على عباده ، وأشكره لأنه ألهمني ذلك الحمد .

ومعنى السببية مما أثبته بعض العلماء لـ(على) ، كقوله تعالى : ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ (البقرة / من الآية ١٨٥) ، أي : كبِّروا الله تعالى بسبب هدايته لكم ، فـ(على) نابت عن (اللام) في هذا الموضع [٣٦] ، على حين ذهب الزمخشري إلى القول باستعلاء (على) في هذا الموضع [٣٧] .

والظاهر أن (على) بيَّنت علة أمر الله تعالى عباده بالتكبير ، وهي هدايته لهم ، واستعمال (على) في هذا الموضع لا (اللام) فيه دلالة على أن المبالغة في الحمد والتكبير ، وكأنه استعلى نعم الله تعالى على خلقه ، ففيه إيحاء على أن يكثروا من حمد الله وتكبيره ، والله أعلم .

٢- في قولها (عليها السلام) تصور حال البشرية قبل بعثة الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) : ((فرأى الأمم فِرَقاً في أديانها، عُكَّفاً على نيرانها)) .

عكف على الشيء ، بمعنى : ((أقبل عليه مُواظِباً لا يَصْرِفُ عنه وجهه ، وقيل : أقام ومنه قوله تعالى : (يَعكفون على أصنام لهم) ، أي : يُقيمون)) [٣٨] . ويستعمل إذا أردت المبالغة في أمرٍ ما ، فـ((عكف على الشيء : واظب عليه و لزمه ، و منه الاعتكاف : وهو لزوم المسجد للعبادة فيه)) [٣٩] ، فالاعتكاف لفظ لا يطلق على كلِّ مصلٍّ في المسجد ، وإنما يدلُّ على من يقيم فيه مدةً من الزمن لا يخرج منه .

فالزهراء (عليها السلام) تبيِّن في هذا المقطع حال المجتمع زمنَ بعثة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فهي تصور ((الوضع المأساوي للأمم قبل بعث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) و كيفية ابتلائهم بظلمة الخرافات، المجوس في تعظيمهم للنار، و العرب في عبادتهم للأصنام ، و سائر الملل في ابتلائها بنوع من الانحراف و التفرقة)) (٤٠) .

استعملت السيدة الزهراء (عليها السلام) جمع التكسير (عُكَّف) ولم تستعمل جمع المذكر السالم ، لما فيه من مبالغة في الدلالة على شدة ملازمتهم لذلك الفعل ، وجاء الحرف (على) ليكون أبلغ في الدلالة ، فهم لم يكونوا عابدين لتلك الأشياء ، وإنما صارت لهم كالأرض وهم فوقها ملتصقين بها .

٢- في قولها (عليها السلام) : ((ونصبر منكم على مثل حَزِّ المدى ، ووَخْزِ السنان في الحَشا)) هذا المقطع من الخطبة الشريفة ، تعاتب فيه المسلمين على ما جرى على أهل بيت النبوة بعد وفاة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وقد احتمل البحث في (على) دلالتين ، أحدهما : البدلية ، ويكون المعنى بحسب هذا التوجيه : أنكم فعلتم بنا أفعالاً مؤلمة آذتنا كثيراً ، ولكن لم نقابلكم بمثل تلك الإساءة ، وإنَّما كان فعلنا الصبرَ بدل أفعالكم . فهم يقابلون الإساءة بما أمرهم الله تبارك وتعالى .

والدلالة الأخرى هي السببية ، إذ تُبين (عليها السلام) هنا علة الصبر ، وهي أنهم قاموا بفعل الصبر، لأن القوم قاموا بأذيتهم ، ونظير هذا المعنى قوله تعالى : (ولتكبروا الله على ما هداكم) .

ومهما يكن من توجيه دلالي هنا يبقى معنى الاستعلاء طاغياً على النص ، إذ إن الصبر يكون مستعلياً على ما سواه في هذا النص ، فأرادت (عليها السلام) أن تُبَرِّزَه لبيان عظمة أهل البيت ومقابلتهم الاساءة بالإحسان .

٣- في قولها (عليها السلام) مؤنبةً مَن حضر في ذلك المجلس : ((ألا وقد قلتُ ما قلتُ على معرفةٍ منِّي بالخَذْلة التي خَامَرتْكُم، والغَدرَة التي استشعَرتْها قلوبُكم)) .

الخَذلَة هي : ((الكثيرُ الخذل)) (٤١) ، فهي (عليها السلام) تفصح عن حجم الانتكاسة التي حصلت بعد وفاة النبي الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) فكان القوم مصداقاً لقوله تعالى :﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران / الآية ١٤٤) ، فكانت مدركةً لما ستؤول إليه الأمور المسلمين .

واحتمل البحث في الحرف (على) في هذا المقطع دلالتين ، الأولى : معنى المصاحبة ، وهو من المعاني التي أثبتها بعض العلماء لهذا الحرف ، وفسَّروا بعض الآيات الكريمة تبعاً لهذا المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الرعد / من الآية ٦) فإنَّ الله تبارك وتعالى : ((ذو عفوٍ وصفحٍ وسترٍ للناس ، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار. ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ، ليعتدل الرجاء والخوف)) [٤٢] ، وذهب الرازي إلى أن الله تعالى ذو مغفرة لهؤلاء ((حال اشتغالهم بالظلم كما أنه يقال : رأيت الأمير على أكله أي حال اشتغاله بالأكل فهذا يقتضي كونه تعالى غافراً للناس حال اشتغالهم بالظلم)) [٤٣] ، ومهما اختلف الموقع الإعرابي لشبه الجملة (على ظلمهم) فإن هذه الآراء تشترك في شيءٍ أن المغفرة الإلهية مصاحبةٌ لظلم العباد أنفسهم .

ومن هذا المعنى يوجِّه البحثُ دلالة (على) في نص الخطبة الفدكية ، على معنى: أن الزهراء (عليها السلام) عاتبت القوم وأفصحت عمّا يختلج في صدرها من الحزن الممزوج بالغضب على انحراف القوم عن جادة الصواب ، فقامت آمرةً بالمعروف وناهية عن المنكر ، مع علمها بأن هؤلاء تخاذلوا عن نصرة الحق ، بل وصل بهم الأمر أن يغدروا بالإسلام ويحرِّفون الحق عن مقرِّه ، ولكن هذا لم يمنع السيدة الزهراء (عليها السلام) من أن تؤدي فرائض الله تعالى التي عُطِّلت .

وأما الدلالة الأخرى لـ(على) فهي السببية ، وعليه يكون التوجيه الدلالي للنص أنها (عليها السلام) قامت بهذا الاحتجاج وإظهار المعارضة بسبب تخاذل المسلمين عن حماية دين الله تعالى المتمثل بأهل بيت النبوة ، بل كانوا أداة لإيذاء عترة النبي الكرام . فبسبب أفعالهم هذه لاثت خمارها ودخلت المسجد النبوي المبارك ، لتنبِّه المسلمين عمّا وقعوا فيه ، ولتدارك ما يمكن تداركه من حالهم ، لإنقاذ دين الله الخالد .

ثانياً : (إلى) :

حرف مختص بالأسماء ، وعمله الجرُّ ، وقد ذكر له الرمّاني أربعة معانٍ[٤٤] على حين وصل عددها عند المرادي ثمانية معانٍ ، الأصل فيها انتهاء الغاية المكانية أو الزمانية [٤٥] ،

وأكثر المعاني التي ذكرها العلماء لهذا الحرف ، يمكن إرجاعها إلى هذا المعنى ، فممّا أوّلوه في ذلك قوله تعالى : (منْ أنصاري إلى الله) ، أي : ((من أعواني على إقامة الدين المؤدي إلى الله ؟ أي إلى نيل ثوابه كقوله : (إني ذاهب إلى ربي سيهدين))). [٤٦] ، فيما ذهب آخرون إلى أن (إلى) بمعنى (مع) ، ولا أريد التوسع بهذه المسألة ، فقد أشبعت درساً ومناقشة [٤٧] ، وإنما ذكرنا هذا ، لتأويل ما يمكن تأويله من المعاني الأخرى وإرجاعها إلى انتهاء الغاية .

وقد وردت (إلى) في الخطبة الفدكية بمواضع عدة ، منها :

في قولها (عليها السلام) : ((واستحمد إلى الخلائق بإجزالِها ، وثنّى بالنَّدْب إلى أمثالِها)) .

هذا المقطع من الخطبة الشريفة تبين فيه السيدة الزهراء (عليها السلام) نعم الله تعالى ، وكيفية شكرها ، واستعملت مفردة (استحمد) وهي على وزن (استفعل) الدال على الطلب في أكثر مواضعه ، كقولنا : استغفر . بمعنى طلب الغفران ، واستعان ، أي طلب العون .

فالله تعالى يطلب من عباده أن يحمدوه ، لأنه أجزل عليهم النعم ، وهو طلب دالٌّ على الوجوب ، لأنه صادر من الأعلى إلى الأدنى . والإجزال دالٌ على الإكمال والإتمام والإكثار ، فتقول : لفظ جزلٌ ، خلاف الركيك ، والشكر الجزيل، أي العظيم ، وعطاءٌ جزيل، أي: كثير[٤٨] فالجذر اللغوي (جزل) دالٌ على القوة والكثرة والكمال ، ولذلك استعملته السيدة الزهراء لبيان إتمام نعم الله تعالى على خلقه .

واحتمل البحث في (إلى) الواردة في هذا النص دلالتين ، الأولى : أن تكون بمعنى (من) بقرينة المعنى الذي أفاده الفعل (استحمد) الدال على الطلب ، ويكون المعنى : أن الله تعالى طلب من عباده أن يحمدوه ، لأنه أكمل نعمه عليهم . ونيابة (إلى) عن (مِن) من المعاني التي أوردها العلماء لهذا الحرف ، كقول الشاعر :

تقولُ وقد عاليتُ بالكُورِ فوقَها أ يُسقى ؟ فلا يُروى إليَّ ، ابنُ أحمرا [٤٩]

والتقدير : فلا يروى منّي .

والمعنى الآخر لهذا الحرف انتهاء الغاية ، وهو المعنى الأصلي لهذا الحرف ، ويكون التوجيه تبعاً لهذا المعنى ، أن الأمر صادر من الذات الإلهية وينتهي إلى الخلق حتى يؤدوا هذا الفرض بسبب تتابع النعم الكاملة والمتوالية عليهم .

خاتمة البحث ونتائجه

بعد هذه الرحلة في هذا السفر الخالد للسيدة الزهراء (عليها السلام) ، ظهرت لباحثين نتائج، يمكن إجمالها فيما يأتي :

- كشف الباحثان عن قصديّة استعمال الحرف في أكثر نصوص الخطبة ، وذلك برد المعاني المتعددة إلى معنًى واحد ما استطاعا إلى ذلك سبيلاً ، أما إذا تعذّر ذلك فيركنا إلى الاحتمال المتعدّد للدلالات المستنبطة من تلك النصوص، ومن تطبيق ذلك:
- أنّ معنى الباء في قولها (عليها السلام) : ((ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيته)) دلالات متعددة ، يمكن ردّها إلى المعنى الأصلي وهو الإلصاق .
- أن الواو في قولها (عليها السلام) : ((فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك ، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر . والزكاة تزكية للنفس ، ونماءً في الرزق ، والصيام تثبيتاً للإخلاص ، والحج تشييداً للدين والعدل تنسيقاً للقلوب ، وطاعتنا نظاماً للملة)) . دالةٌ على الترتيب ، تبعاً لسياق النص . فهذه الأمور التي ذكرت أمر مبني على آخر ، مما يستدعي الترتيب أكثر من الجمع بينها من دون ترتيب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وآله الأطيبين الكرام

هوامش البحث

(١) الاحتجاج ٧٠ – ٧٣ .

(٢) كتاب سيبويه ١٢/١ .

(٣) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني ٦/١ .

(٤) كتاب سيبويه ١ / ٣٨٦ .

(٥) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني ، ٢-٦ .

(٦) شرح الخطبة الفدكية ، الشيخ محمد باقر المجلسي ٤٤ .

(٧) الميزان في تفسير القرآن ، محمد حسين الطباطبائي ٧ / ٧١ .

(٨) المصدر نفسه ٥ / ٧٩ .

(٩) التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ١٥ / ١٦٧ .

(١٠) شرح الخطبة الفدكية ٤٧- ٤٨ .

(١١) المصدر نفسه ٤٩ ، والنص القرآني الكريم الأول من سورة الانعام / من الآية ١٢٤ ، والنص الآخر من سورة القصص / من الآية ٤٨ .

(١٢) مختصر درجات البصائر ، الحسن بن سليمان ١ / ١٨٠ .

(١٣) ينظر : الجنى الداني ٥٣ .

(١٤) ينظر : المصدر نفسه ٣٦ .

(١٥) كتاب سيبويه ٦٣/٢.

(١٦) الجنى الداني ٥٤ .

(١٧) شرح الخطبة الفدكية ٦٢ .

(١٨) ينظر : الجنى الداني ١٠٩ .

(١٩) ينظر : كتاب سيبويه ٢ / ٣٠٤ .

(٢٠) ينظر : معاني الحروف ، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني ١٨٠ .

(٢١) ينظر : مغني اللبيب ١٤٩/٣ – ١٥٠ .

(٢٢) الجنى الداني ١٠٩ .

(٢٣) ينظر : كتاب معاني الحروف ١٨٠ .

(٢٤) ينظر : شرح خطبة الزهراء (ع) ، أبو القاسم جعفر بن الحسين الخوانساري ٥٢ .

(٢٥) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني ٤٠ .

(٢٦) ينظر : معاني الحروف ١٠٧ .

(٢٧) ينظر : المخصص ، ابن سيده ٣٣٧/٣ .

(٢٨) أساس البلاغة ٦٧/١ .

(٢٩) المصدر نفسه ٦٧/١ .

(٣٠) بحار الأنوار ٣٩/٥٥ .

(٣١) التبيان في تفسير القرآن ٥ / ٣٠٣ .

(٣٢) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني ٥٢ .

(٣٣) ينظر : الأصول في النحو ٤١١/١ .

(٣٤) كتاب سيبويه ١ / ٣٣٨ .

(٣٥) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني ٨٠ .

(٣٦) ينظر : مغني اللبيب ١ / ٥٤ .

(٣٧) ينظر : الكشاف ١٦٤/١ .

(٣٨) لسان العرب ، مادة (عكف) ٢٥٥/٩ .

(٣٩) مجمع البيان في تفسير القرآن٣٠٧/٤ .

(٤٠) الزهراء (عليها السلام) خير نساء العالمين، ناصر مكارم الشيرازي ١١٨ .

(٤١) المعجم الوسيط ٤٦٨/٢ .

(٤٢) تفسير القرآن العظيم ٤٣٢/٤ .

(٤٣) مفاتح الغيب ١٤٥/٩ .

(٤٤) ينظر : معاني الحروف ١٢٨-١٢٩ .

(٤٥) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني ٦٥ .

(٤٦) ١٩ / ٢٧٥ . والنص القرآني من سورة الصافات / الآية ٩٩ .

(٤٧) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : الإنصاف في مسائل الخلاف ٢٦٦/١ . والجنى الداني في حروف المعاني ٦٥-٦٦ .

(٤٨) ينظر : لسان العرب مادة (جزل) ٦١٨/١ .

(٤٩) وهو من شواهد همع الهوامع ٢ / ٢٠ ، وشرح الأشموني ٢ / ٢١٤ ، وشرح أبيات المغني ٢ / ١٢٩ .

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. الاحتجاج: الطبرسي(أحمد بن علي ت ٥٦٠ه)، المطبعة المرتضوية ، النجف الأشرف، ١٩٣١م.

٣. أساس البلاغة: الزمخشري(جار الله محمود بن عمرو ت٥٣٨هـ)، تحقيق محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط١، ١٩٩٨م.

٤. الأصول في النحو: ابن السراج(محمد بن سهل بن السراج ت٣١٦هـ) , تحقيق د. عبد الحسين الفتلي, مؤسسة الرسالة , بيروت , ط٤ ، ١٩٩٩م .

٥. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين: أبو البركات الأنباري(عبد الرحمن بن محمد ت ٥٧٧هـ) المكتبة العصرية ، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٦. بحار الأنوار: المجلسي (محمد باقر بن محمد تقي بن مقصود علي ت١١١هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠٠٨م.

٧. التبيان في تفسير القــرآن: الطوسي(محمد بن الحسن ت٤٦٠ه)، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١٤٠٩،١هـ.

٨. التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) : الطاهر بن عاشور(محمد الطاهر بن محمد بن محمد ت ١٣٩٣ه) ، الدار التونسية للنشر، تونس ، ط١ ، ١٩٨٤م

٩. تفسير القرآن العظيم : ابن كثير(إسماعيل بن عمر ت٧٧٤هـ)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٩٩٩م.

١٠. الجنى الداني في حروف المعاني : المرادي ، تحقيق د. فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٩٢م.

١١. الزهراء (عليها السلام) خير نساء العالمين: ناصر مكارم الشيرازي ، ط١، دار الهادي للطباعة، بيروت ، ١٩٩٣م..

١٢. شرح أبيات مغني اللبيب: البغدادي عبد القادر بن عمر ١٠٩٣ هـ)،تحقيق عبد العزيز رباح - أحمد يوسف دقاق، دار المأمون للتراث، بيروت،،١٣٩٣ - ١٤١٤ هـ.

١٣. شرح الأشموني على ألفية ابن مالك : الأشموني(علي بن محمد بن عيسى ت ٩٠٠هـ) ، دار الكتب العلمية بيروت، ط١ ،١٩٩٨م .
١٤. شرح الخطبة الفدكية : محمد باقر المجلسي، ط ١، دار كلستان كوثرللنشر، قم، ٢٠٠٣م.
١٥. كتاب سيبويه: سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ت ١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٨م.
١٦. الكشاف عن خصائص غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري ، دار الكتاب العربي بيروت ، ١٩٤٧م .
١٧. لسان العرب: ابن منظور(محمد بن مكرم بن علي ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت ، ط٣، ١٤١٤هـ
١٨. مجمع البيان في تفسير القرآن: الطبرسي(الفضل بن الحسن ت ٥٤٨ه) تقديم السيد محسن الأمين العاملي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ، ط١، ١٩٩٥ م .
١٩. المخصص (دار إحياء التراث) : ابن سيده(علي بن إسماعيل ت ٤٥٨هـ)، تحقيق : خليل إبراهم جفال دار إحياء التراث العربي ، ط ١، بيروت،١٩٩٦م
٢٠. معاني الحروف: الرماني(علي بن عيسى بن علي ت ٣٨٤هـ) ، تحقيق د.عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق، السعودية، ط١٩٨٤،٣م.
٢١. المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى و أحمد الزيات و حامد عبد القادر ومحمد النجار، دار الدعوة، القاهرة ، د.ت).
٢٢. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : ابن هشام الأنصاري، تحقيق د. مازن المبارك ، و د. محمد علي حمد الله ، دار الفكر ، دمشق ، ط٦، ١٩٨٥ .
٢٣. مفاتيح الغيب(التفسير الكبير): فخر الدين الرازي(محمد بن عمر بن الحسن ت٦٠٦ه)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ .
٢٤. الميزان في تفسير القرآن: السيد محمد حسين الطباطبائي(ت١٤٠٢ه)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧م .

٢٥. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع : السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت٩١١هـ)، ، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية ، مصر، (د.ت).